

## الموازين والأرض

يسرى الأيوبي

عندما نزلت البعثة الفضائية العلمية على المريخ لم يدر بخلد أحد من أفرادها أن يجدوا بين الأنفاس التي بدت لأول وهلة أنها تلال طبيعية آثار حياة سابقة على وجهه. وتملكت سكان الأرض الدشة، وبهرت أنفاسهم، وأخذوا يتبعون أبناء الكشوف بلهفة و العلماء يلتصقون مزق الصورة التي اندثرت لعالَم مزدهر ولشعب ما كاد يبلغ من الحضارة شاؤاً حتى أبادته الانقسامات بين صفوّه.

كانت محطات التلفزيون العالمية تحمل على أجنحة قوس قزحية لوحات مهيبة رائعة لعالم المريخ الغامض وتعليق العلماء عليها. وفي كل منزل علقت العيون على الشاشات، وووجفت القلوب برعشة خفية والناس يتساءلون عن المأساة المرهوة التي ضربت المريخ في يوم من الأيام.

شغلت هذه الحضارة للأرضية بالقدر نفسه بالإنسان العادي كما الخبر المختص والفيلسوف. وعادت إلى صدارة الوعي الأسئلة الكبرى التي عذبت جسناً البشر ي منذ فجر تاريخنا حتى هذه اللحظة دون أن نجد لها جواباً شافياً. ومع أن الاكتشافات توالت، وأخذت المعلومات تتراكم لتثير جوانب مظلمة من الحضارة النائية، ونجح العلماء في تطويق الأبعديات الغربية فتدفق سيل حي من الصور والأفكار عبر المسافات الكونية والزمان الأبدى الصارم، إلا أن الحيرة ازدادت ولم تهدأ حدة الجدل.

وفي قصتي هذه لن أعيد المناظرات الأرضية عن ظروف نشأة حضارة المريخ وازدهارها ثم اندثارها، ولكنني سأستعرض صوراً عن هذا الكوكب كما رأها أنساه بأعينهم ووصفوها في آدابهم المتاخرة التي سبقت الكارثة. وقد جمّع مؤرخونا هذه الآداب وصنفوها وأطلقوا عليها مجتمعة اسماً مثيراً للخيال هو "أسطورة المثل العظيم". وأنترك للقارئ مهمة التأمل والاستنتاج أو مجرد أن يسافر من أرضنا ويعيش اللحظات الأخيرة على "أرض القرى والشمس الذهبية" كما لقب أبناء المريخ كوكبهم ذات يوم.

في كتابة مبكرة من الفترة التي نتحدث عنها كتب كاتب مجهول:

"وقع الناس في عبادة آلهة "الموازين" وتخلوا عن تقدير "الأم العظيمة" من جهة الخصب والحياة. ترى أي مصير ينتظرنا..؟"

ويتابع فيصف كيف تولت آلهة على الحكم، وكلما أمسك إله بناصيته جاء بميزانه وأوزانه فمن زاد وزنه أو نقص عن المعيار المثالي طرد من عمله وأودع السجن وصودرت أملاكه ولعن هو وذريته، ولعن كل من أوى فرداً منهم أو أطعنه، فكانوا يهيمون على وجوههم يقتلون حشيش الأرض وتلتهم الرياح، فيموت منهم من يموت ويقاوم من يقاوم، أما العمالقة والأفراط فكانت تفصل رؤوسهم عن أجسادهم حتى انقرضا وزالوا وانقرضت وزالت ذراريهم. ولم يحزن الناس كثيراً لأنهم بطبعهم يحبون المساواة والعدل.. ويغدو الميزان صارماً أكثر حتى أن زيادة قيراط في وزن المواطن أو نقصه يصبح سبباً للملaqueة والتعذيب. وضج الناس، وشحن الجو بالضغينة والتآمر. وفي ليلة حالكة تغفل فيها عين صاحب الميزان عن ميزانه، كان يسرق منه ويكتب هو بالحديد ويلقى في الفضاء وينصب إله جديد وميزان جديد. مرة يكون ميزاناً للوزن وأخرى للطول فمن زاد طوله أو نقص عن الطول المثالي لقي ما لقيه المتخلّف عن الحجم المثالي، وفي غيرها لون البشرة أو لون العيون حتى أضحى كل فرد من سكان المريخ مهدداً في حياته قفأ على مصيره. وقد كل واحد الثقة بأخيه وأخذ يلمحه برببيه واتهامه، وصار القطع والوصم والإدانة والتعذيب شعار كل إله يحمل ميزاناً؛ وكثيراً ما يقلب الصديق عدواً، ولا ينقلب العدو صديقاً!..

وتنتهي المخطوطة بهذه العبارات الشعرية:

"يا أرض القمرین والشمس الذهبیة

إن جداول الحب تتضب

وسیول الکره تجرف التربة

إلى البحر

يأرض القمرین والشمس الذهبیة

إن أبناءك يغرقون

في لجة الجنون

وكلما زرعت الأمهات شجرة

اقتلعت

أو قصفت

وهي غصة

لم تقع ولم تثمر.

وعلى غلاف هذه المخطوطة كتبت العبارات التالية ممهورة بختم رسمي:

"كتابة تحريضية خطيرة لا يسمح تداولها، تحفظ في مكتبة المعبد.

ملاحظة: صلب كاتبها بعد أن اقتلع لسانه وسللت عيناه."

وفي عمل شعري ضخم يعرف باسم ملحمة الطائر الناري أو الملhma  
الناقصة نقرأ هذه الأبيات:

"الأم العظيمة تتأنّه

الأم العظيمة تتأنّه في سجنها المظلم

في بئر في باطن الأرض

الأم العظيمة تنزف الدمع السخين

فتتبت الزهيرات البنفسجية

تحت شجرة الحياة الخالدة

مع إطلالة كل ربيع شاحب عليه

لا عيد للشباب فيه

ولا للحب."

ويصنف خبراؤنا هذه الملhma الشعورية مع أدب الملاحم الشعبية أو الأساطير الدينية التي راجت في الحقبة التي سبقت الكارثة. ورغم تحريم تداولها ومصادرها نسخها المكتوبة وإتلافها، فقد كان الناس يتلقاون أشعارها شفهياً. ولحسن الحظ سلّمت بعض النسخ، ولعلها دوّنت في وقت متأخر عندما تراخت قبضة السلطات وعمت الفوضى في أواخر عهد هذه الحضارة البائدة..

ونتابع الفصول الأخيرة من الملhma فنقرأ كيف ردت الأرض صدى تأوهات الأم العظيمة، فسمعتها شجرة الحياة الخالدة، وقالت للطائر الناري الذي يتخذ من فروعها موطنًا:

"صَهْ. اسمع أيها الطائر الناري"

يا ذا الصوت الحزين الشجي  
أنت يا من تغرس فيتشتعل صوتك  
بالصدق والحكمة يشتعل صوتك  
كما تشتعل النار المقدسة في ظلام الليل.

فيصمت الطائر الناري ويصغي إلى شجرة الحياة الخالدة التي حملته رسالة  
إلى الحاكم:

قل له:

إن شجرة الحياة الخالدة  
تعرف أنين السجين الذي كبس  
لأنه خلق حراً  
كما أرادته الطبيعة التي  
تأبى خلق الكائنات المتماثلة.

قل له:

يا صاحب السلطان  
بالقسط أقم الميزان  
وضع حدأ للمهزولة  
التي تعرق أرضاً  
بالفوضى والتخريب.

قل له:

المحل لابد آتٍ  
إن أنتم أعماكم حب الذات  
المحل يزحف على الطرقات

المحل يجتاح البيوت والبساتين  
المحل لكم بالمرصاد  
المحل يرقبكم بعيون آثمة  
لاتعرف الرحمة  
وبنهم عاتٍ  
يفتح شدقه الرهيب  
لبيتلع الأطفال  
والشباب والشيب  
والنساء والرجال  
فوويل للعميين  
إن فاجأتهم ساعة اليقين  
كانوا من الهاكين  
وما ينجيهم حينئذ؟  
حمقاء الموازين!  
قل له:  
لم يعد من أحد يزرع على الأرض شجرة  
وفي أعيادي لم يجد حملة الشعلة المقدسة  
ما يكفي من فروع مزهرة  
ليسروا في المواكب  
قل له:  
عرفنا الصوم فمتى نفطر؟

عرفنا الحزن فمتى نفرح؟  
عرفنا الليل فمتى تشمئ؟  
عرفنا الشتاء فمتى يأتي الربيع؟  
متى يعود الخصب وتزهر العبرية؟  
عبرية الأرض الندية  
التي تعرف جمال العطاء،  
قل له :

لماذا يخدم الحب الذي يروي؟  
وتعيض المحبة التي تسع الجميع؟  
كيف تكبر الخلافات الصغيرة  
فتحجب كما الظلام في عز الظهيرة  
خطراً يتربص بنا أجمعين؟  
فنغلله

ونذكرها  
بضغينة تملأ قلوبنا بالقروح  
ولا نجد وئاماً يلسم الجروح.  
قل له :

أ بالأغلال تكبّلون الأم العظيمة؟  
قل له :

المحل لو جاء قتلنا غافلين  
لأننا من الأرض نغتذى

لَا مِنَ الْمُوَازِينَ".

ونقر الطائر الناري نافذة صاحب الميزان بعد مو亨 من الليل فأفاق مذعوراً.. من ذا يجرؤ على اقتحام الأسوار إليه والحراسة مشددة والعيون يقطة؟..

وابتسه إذ رأى الطائر الصغير. كم هي مرهقة أعصابه حتى ليصاب برعدة  
لكل نائمة!.

"- غنٰ يا طائر النار و هدهد أحلمي

فمنذ سنين

كفت أذنای عن سماع شدوك الحزین!

- لم آت لاغنى

رسالة الياك أحمل يل

من شجرة الحياة قاهرة السنين.

- ماذا تقول؟

- تقول الشجرة الخالدة أنها

## تعرف أين السجين الذى كُلَّ

لأنه خلق حراً

كما أرادته الطبيعة التي

تأبى خلق الكائنات المتماثلة.

**تكلم الطائر بأمانة، لم ينقص ولم يزد حرفًا، فأجاب صاحب الميزان:**

- قل لها:

أيتها العجوز الحكيمة

أحلفك، قولى الحقيقة

هل من أحد يوقرنا  
لو نجح وأقام الميزان؟

قل لها :

أيتها الشجرة العتيقة

لعلك تعلمين

ماذا يحل بنا

لو اختلطت الموازين.

تحتل الأكونان

ويضمحل العالم

وبيهلك ما على الأرض

من نبات وحيوان وإنسان.

قل لها:

أقدس من الأرض الميزان!

قل لها:

أيتها العجوز الحكيمية

عندما يستتب ميزاننا

تاجاً نعقده

على جبين الأم العظيمة."

وذهب الطائر الناري بهذا الجواب إلى شجرة الحياة القديمة قدم الزمان، فأطيرت وهي تستعيد في مخيلتها تجارب الماضي المريرة، وتستلهم الحكمة منها علّها تجد طريق الخلاص في الحاضر فلا تفلح، فلم يمر بأرض القمرین والشمس الذهبية من قبل عهد يشبه العهد الذي تعيشه الآن، ولم يكن الخطر في يوم من الأيام أقرب إليها منه الآن.

"طريق خطيرة"

هذه التي فيها تتدفعون

أبناء الأم العظيمة

ويحكم ألا ترون؟

أنتم أبناءها جميعا

فان استبدت بواحدكم من الآخر الغيرة

فإن قلبها يبقى قلب الأم

يحبكم جميعا

ويحزن لكم جميعا.

أتكلتم الأرض

وأشختم فيها جراحها

حتى لنتمنى

لو عقمت ولم تلذكم

يقتل بعضكم ببعض

وقد أودى الغرور بكم

فعلم تحتربون؟

عودوا اليها

واركعوا عند قدميها

وأحيوا أعيادها

لعلكم تتجون.

فإن عجزتم

أن يؤلف الحب للألم العظيمة بين قلوبكم  
فليؤلف الخوف من الفناء بينكم  
أما إذا عن هذا أيضا عجزتم  
فلينحل نسيج هذا الكوكب  
لتتهاوى أعمدته  
ولتفتح براكينه أشادقها  
وتحرق بحممها حجره  
ويابسه وأخضره  
وإنسانه ودابته وطائره.  
ولتعقم أرحام من عليه  
ويفنى كل حي فيه".

وجميع نسخ الملهمة المكتشفة حتى الآن تتوقف فجأة دون نهاية، لذلك  
دعى بالملهمة الناقصة، وفي بعض النسخ ترد النبوءة الغربية التي طارت  
شهرتها بعيداً بين أبناء جلدنا:

"إنسان جديد"  
يرث الأرض في مأتي الزمان  
تبعثه السماء من بعيد  
ويعيد عهداً طواه النسيان  
سيكون أفضل  
ويكون أحكم  
ويكون أكثر تواضعاً منكم".  
ولعل الغرور الذي هيأ لنا أن النبوءة تعنينا نحن هو سبب شهرتها بيننا!..

لайдري أحد بعد ما حدث بالضبط على سطح المريخ، والتkehنات كثيرة ومتضاربة. ولكن إذا حاولنا أن نتم اللوحة الأدبية الأسطورية مستدين إلى المادة الأدبية التي بين أيدينا يمكننا أن نرسم صورة من عالم الرمز والخيال عما حصل ذات يوم على أرض القمرين والشمس الذهبية:

من المرجح أن أصحاب الموزعين استمروا في لعبتهم، ولم يكف أحدهم عن الكيد للآخر، وجاء يوم لم يحسب له أحد حساباً.. المحل الكبير! لم يعرف سكان المريخ في حياتهم ما يماثله.. اجتاح سطح الكوكب كالطوفان فجعل كل خضرة هشيمياً.. وكان في مشروع كل صاحب ميزان أن يتصدى للكارثة لكنه لم يفعل لأنهم كانوا جميعاً مشغولين بخصوصاتهم. وجفت السواقي والأنهار، ونفقت الطيور واستمر محل ينظر إلى المريخ بعين حادة تتوجه بالناس، وجدت الأشداء والضروع فهلك صغار الإنسان والحيوان، وأصابت الناس مجاعة هائلة، فأخذوا يتهاونون فراداً وجماعات فاقدى الحياة.. وكان أول من ضمتهم الأرض في أحضانها الأطفال الصغار الذين نزلت لهم الأمهات الحفر ووارتهم دون أن تبص عيونهن بالدموع، إذ أصاب محل حتى مأقيهين، وتبعهم الشيوخ ثم النساء والرجال.. ونال من بقي الذعر فانحل الانسجام وعم الخراب وتهاوت كل القيم وأنشب القوي برأسه بالضعف وأكل لحمه ثم أصبح فريسة هو الآخر..

على جدران كهف عميق ضائع في جبال المريخ الجرداء كتابة نقشتها يد مجهولة، تعرف هذه الكتابة في عالمنا باسم شاعري جميل: "مذكرات العاشق الأخير". تقول الكتابة في مدخل الكهف:

"أنا العاشق الأخير على هذه الأرض الأبدية"

أنا الناسك المتوحد رغم إرادته

من صومعة وحدتي وتعسي

أرقب كل يوم

غروب الشمس

خلف أفق الصحراء السرمدية."

وفي مكان آخر من الكهف خطّت الكتابة التالية وهي تتحدث عن حيوانين مجنحين، أغلب الظن خرافيين، يدعيان المريخيين المجنحين، وتمثلهما التمايل والرسومات على جدران المعابد رابضين بوداعة عند قدمي الألم العظيمة رغم القوة الهائلة التي تتطق بها تعابير وجهيهما وعضلات جسديهما ومخالبهما:

"كانت شجرة الحياة الخالدة تستيقظ على فجيعة وتنام على أخرى، وأفاقت ذات صباح لتشاهد المريخين المجنحين حارسي الأم العظيمة قد نفقا أيضا، فعلمت أن منيتها دنت، إذ جفت اليابس في باطن الأرض ولم تعد جذورها الناشبة في ظلام التربة لترتوي ب قطرة ماء.. وكانت ترى بعينيها وقلبها لايزال ينبض كيف ينحسر نسغ الحياة عن أطرافها رويداً رويداً فتجف وتهش حتى بلغ منها موضع القلب الذي خفق ألوف السنين فتمتلت:

- وداعاً أيتها الأم العظيمة.. اغفرى لنا جميعاً ما اقترفناه في حقك وحق أنفسنا..

ولكن الأم العظيمة أبت أن تغفر وهي تجبل بعينيها المتعبتين في الخراب والدمار الشامل! لقد عقدوا لها أخيراً تاج الفناء !.

\* \* \*